عليها ورق ، فترك المكان الى غيره ، وشد ما كان عجبه حينما كان يرى أن الشجرة التي يصطفيها لنفسه هي التي لا تخضر ، وفي كل سنة يتحول الى بستان جديد حتى تعددت عليه السنون وكثرت الى أن انتهى الى بلاد غزة ، وفي غزة اشتغل بستانيا في احدى البيارات وانتقى له شجرة معينة فيها وكانت دهشته بالغة حينما رأى ان شجرته قد اخضرت مع سائر الاشجار ، ابتهج بالمنظر ثم قال: — البلاد طلبت أهلها» .

وميزة هذه الحكاية ليست في ذكرها لاسماء المدن الفلسطينية فحسب ولكن في ربطها القدري والميتافيزيقي بين ايراق الشجر وعودة الانسان الفلسطيني الى أرضه ، ومثل هذا الربط بين الشجرة والطالع يؤكد على مدى اصالة الارتباط بالارض وجعل ذلك موازيا للقدر — العودة الى الارض مرهونة بايراق الشجرة التي هي الارتباط الحميم بالارض — وليس ذلك فقط ، فهناك حكاية أخرى شبيهة بهذه الحكاية جعلت الشجرة مرادفا للحياة — الاحتماء بالشجرة للمحافظة على الحياة احتماء خرافيا ولا معقولا — ففي الحكاية التي تسمى « الاخت الغولة »(١٢) نرى البطل يحتمي بالشجرة انقاذا لحياته ، ونرى الشجرة ليست مجرد مخبأ مرتفع لا تتمكن الغولة من ان تطال البطل منه ، ولكنها شجرة اسطورية تحمل نوعا من الدلالة الرمزية للانتماء التاريخي للارض، فهو حين يهرب الى الشجرة نراه يقول « اوطي يا شجرة أمي وابوي ، فتقصر الشجرة فيصعد اليها ، ثم ترتفع عالية في السماء » .

واذا كانت ظاهرة التأكيد على الارض الفلسطينية (فلسطين بشكل عام وموقعها بين الشام ومصر او بشكل خاص المواقع والمدن والقرى الفلسطينية) هي احدى السمات البارزة في حكايات المنفى ، فان ثمة سمة اخرى لا تقل اهمية ، تبدو واضحة في هذه الحكايات التي ما تزال في التجمعات الفلسطينية خارج الارض المحتلة ، فهي بالاضافة الى احتفاظها بأسماء المواقع والاماكن الفلسطينية ، وتشبث ذاكرة رواتها بهذه الاماكن تؤكد من جانب آخر على العودة الى هذه الاماكن ، وتجعل من هذا الامل هاجسا اساسيا لابطالها وسمة رئيسية من سماتهم ، كما ان رواة هذه الحكايات يجعلون من العودة أمنية يرددونها سواء في بداية الحكاية او نهايتها ، ولايضاح ذلك فانني سأورد فيما يلي بعض النماذج :

أ — في الحكاية التي تسمى « خروف بخروف »(١٣) والتي تلقي ضوءا على بعض جوانب التطور الاجتماعي في الريف الفلسطيني — التناقض بين المجتمع الرعوي والمجتمع الزراعي — نرى ان الدافع الاساسي للهجرة كان الصراع الذي نشب بين المزارع صاحب الارض ، وبين الراعي صاحب المواشي ، وقد ادى هذا الصراع الى جريمة قتل جلا بسببها المزارع عن ارضه فهاجر الى منطقة شرقي الاردن ملتجئا عند مثقال الفايز شيخ عشائر الصخور — لاحظ التحديدات المكانية والتاريخية الصارمة في هذه الحكاية — الا أن اللجوء الاضطراري لم يحل دون رغبة الفلاح الفلسطيني في العودة الى أرضه وبلاده ، الامر الذي اضطره الى تقديم اثنين من اولاده بدلا من القتيل ليتمكن من العودة الى وطنه .

واذا كان النزوح عن الارض في الحكاية السابقة قد جاء نتيجة منطقية لطبيعة التطور الاجتماعي واحتماء من الثأر ، فان حكاية أخرى — مصير الجاني — جعلت للنزوح اسبابا مختلفة وهي الحفاظ على العرض ، كما ان حكاية ثالثة — ثأر الاخت — قدمت سببا آخر للارتحال وهو محاولة الانتقام لعرض منتهك ، ولكن هذه الحكايات جميعا ظلت — رغم وجاهة اسباب الهجرة والترحال — تتخذ من حتمية العودة الى الارض الام محورا اساسيا يدور حوله الحدث وينمو ويتطور .